العلم والفلسفة في العصور الحديثة:

"الفلسفة المعاصرة" اسم يطلق على مجموعة من الفلسفات المختلفة التي ظهرت خلال المائة عام الماضية تقريبًا. إلا أن كلمة "ظهرت" لا تعني أن هذه الفلسفات أصيلة تمامًا جاءت بما هو جديد كل الجدة. بحيث تميزت عن الفلسفات السابقة عليها تميزًا جوهريًا. كلا، فالفكر الإنساني متصل على الدوام، يأتي اللاحق متأثرًا ــ سلبًا أم إيجابًا ــ بالسابق على وجه نستطيع معه أن نقول إننا لو شئنا أن نتتبع أية فكرة عند أي اتجاه فلسفي معاصر، لاستطعنا أن نجد جذورها ضاربة في تربة الماضي البعيد الذي قد يمتد لقرون كثيرة.

إلا أننا سنكتفي ــ في حديثنا عن خلفية الفلسفة المعاصرة ــ بالماضي القريب، أعني منذ تلك الحقبة من التاريخ التي يطلق عليها المؤرخون عادة اسم "العصور الحديثة".

ففي العصور الحديثة نلاحظ تغيرًا واضحًا في الاهتمام الفلسفي عما كان عليه الأمر أيام اليونان والعصور الوسطى.

فإذا كانت المشكلة الخلقية هي المشكلة الأساسية التي كانت تلح على أذهان فلاسفة اليونان، فأعملوا عقولهم لإيجاد حل لها، وإذا كانت مشكلة العلاقة بين الدين والفلسفة هي المشكلة الأساسية التي أولاها فلاسفة العصور الوسطى اهتمامهم البالغ، فإن موضوع الاهتمام الفلسفي في العصور الحديثة كان له طابع مختلف. إذ تميزت هذه العصور بعامل جديد، لم يغير في الجوانب الاقتصادية للمجتمعات فحسب، بل في جميع جوانب الحياة الأخرى سواء الاجتماعية أو السياسية أو الأخلاقية، وهذا العامل الجديد هو العلم الحديث.

وقد ذهب بعض مؤرخي الفكر[1] إلى أن الفترة التاريخية التي نطلق عليها "العصر الحديث"، تختلف عن العصر الوسيط في عدة وجوه، لعل من أهمها

الوجهين التاليين: تقلص سلطة الكنيسة، وازدياد سلطة العلم. وإلى هذين الوجهين ترتد جميع أوجه الاختلافات الأخرى.

إلا أننا نلاحظ أن رفض سلطة الكنيسة ــ الذي يمثل الخاصية السلبية للعصر الحديث ــ كان أسبق في الظهور من الخاصية الإيجابية، وهى التسليم بالسلطة العلمية، إذ أن العلم لم يلعب في عصر النهضة بإيطاليا سوى دور صغير. وظهرت أول دفعة حقيقية للعلم في أثر نشر نظرية "كوبرنيكس" (١٤٧٣-١٥٤٣) عام ١٥٤٣، إلا أن هذه النظرية لم يكن لها تأثيرها الفعال إلا بعد أن تعهدها وطورها "كبلر" و"جاليليو" في القرن السابع عشر. ومنذ ذلك الوقت بدأت الحرب في أوروبا بين العلم والتزمت الكنسي، وهى حرب انتهت لصالح تلك المعارف العلمية الجديدة.

ولا شك في أن ظهور العلم بوصفه عاملاً من عوامل القوة قد أدى إلى تغيير الكثير من حياة الناس، وشكل خطرًا على تقاليدهم وأعرافهم، بل وقلب أسس تفكيرهم رأسًا على عقب. فقد ترك العلم آثاره الواضحة في الحياة العامة للإنسان وغير الكثير من النظم الاجتماعية الواضحة في الحياة العامة للإنسان، كما غير الكثير من النظم السياسية والاقتصادية والفكرية. وباختصار كان العلم في حقيقته ثورة عمت المجتمع من جميع جوانبه، وأحدث انقلابًا ضخمًا في مضمون الحياة الإنسانية ومحتواها.

وإذا شئنا أن نتناول أهم ما يرتبط بموضوعنا من التأثيرات التي أحدثها العلم في العصور الحديثة، لاستطعنا أن نوجز ذلك فيما يلي[٢]:

أولاً: أن العلم النظري ــ الذي كان يهدف أساسًا إلى "فهم العالم" لم يعد ــ بوصفه غاية في حد ذاته ــ يمثل تلك المكانة السامية التي كان يحتلها في العصور السابقة، وأصبح العلم العملي الذي يهدف أساسًا إلى "تغيير" العالم أكثر منه أهمية. وأخذت أهمية هذا الأخير تزداد يومًا بعد يوم حتى كاد يقضي على العلم النظري في أذهان الناس. وقد ترك هذا الأمر أثرًا سيئًا مازلنا نعاني منه حتى اليوم وهو التمييز القاطع بين العلوم العملية والعلوم

النظرية، وما ترتب على ذلك من تلك النظرة المتعالية التي ينظر بها أصحاب العلوم الأولى إلى أصحاب العلوم الثانية.

وقد كانت الأهمية العلمية للعلم مرتبطة في بدايتها بالحرب، فقد حصل كل من "جاليليو" و"ليوناردو" على وظيفة حكومية، وذلك للعمل على تحسين المدفعية وإقامة التحصينات الحربية. ومنذ زمانهما فصاعدًا أصبح دور رجال العلم في الحرب يزداد خطورة يومًا بعد يوم، فاتضح بعد ذلك تطور الإنتاج الآلي. وتطبيع الناس على استخدام مصادر الطاقة، البخار ثم الكهرباء. ولكن لم يكن لهم تأثرهم السياسي الملحوظ حتى قرب نهاية القرن التاسع عشر.

ثانيًا: لا شك في أن التخلص من السلطة الدينية الكنيسية، وظهور السلطة العلمية ارتبط بنزعة إلى التحرر، وشعور الإنسان بفرديته واستقلاله عن الآخرين، وكان من أثر ذلك أن كثير من الاتجاهات الفكرية والفلسفية كانت ــ فيما يرى بعض المؤرخين للفكر من أمثال "برتراند رسل" أن الفلسفة المعاصر كانت ذاتية فى طابعها العام، لأن النزعة التحريرية أدت إلى نمو الفردية، فظهرت معظم الفلسفات في القرنين السابع عشر والثامن عشر على صورة اتجاهات ذاتية أو فردية، ويمكن أن نلاحظ ذلك بوضوح عند "ديكارت" الذي أقام المعرفة برمتها على يقين وجوده الشخصي، وسلم بالوضوح والتميز (وهما أمران ذاتيان) بوصفهما محكين للصدق، كما ظهر ذلك أيضًا عند "ليبنتز" في "ذراته الروحية المغلقة على ذاتها". وقد وصلت الفلسفة التجريبية على يد "هيوم" إلى أقصى درجات النزعة الشكية التي لا يمكن لأحد أن يرفضها أو يقبلها، وكان كل من "كانط" و"فشته" ذاتيًا في مزاجه، كما كان كذلك في فلسفته.

ثالثًا: لعل أهم ما ترك العلم الحديث من آثار في أذهان المفكرين هو طرح جميع ما ترتب علي النزعة الروحية أو الحيوية Animism لقوانين الطبيعة. فقد كان الإغريق يعتقدون أن قوة الحركة علامة الحياة، ويبدو للملاحظة العادية أن الحيوانات تتحرك بذاتها، في حين أن المادة الجامدة لا تتحرك

إلا إذا كانت مجبرة على الحركة بفعل قوة خارجية، ومن هنا ذهب أرسطو إلى أن لروح الحيوان وظائف متعددة، ومن بين هذه الوظائف تحريك جسم الحيوان. وكان الإغريق يعتقدون أيضًا أن للشمس والكواكب نفوسًا أو أرواحًا هى التي تتحكم في سيرها وفي حركاتها، أي أنها سبب كل ما نلاحظه من حركة فيها. وقد عدد أرسطو العشرات من المحركات التي كان يعدها أرواحًا إلهية هى المصدر النهائي لجميع أنواع حركة الأجرام السماوية، بحيث إذا تخلت عنها هذه الأرواح توقفت عن الحركة، وهكذا يظل تأثير الروح على المادة مادامت تلك المادة في حالة من الحركة.

وقد تغير هذا الأمر كلية في العلوم الحديثة. فقد قرر القانون الأول للحركة عند "نيوتن" أن المادة الجامدة متحركة، فإذا ما بدأت في الحركة فإنها ستظل متحركة ما لم يوقفها عن الحركة مؤثر خارجي، أو بعبارة أخرى أن "الجسم المتحرك يظل متحركًا ما لم يعترض طريقه عائق خارجي". وكان لهذا القانون أثره الكبير في النظر إلى طبيعة القوانين العلمية، وكان لهذه النظرية تأثيرها الكبير على كثير من النظريات الفلسفية.

رابعًا: كان من بين النتائج الهامة التي أسفر عنها العلم الحديث تغيير مكانة الإنسان في الكون. فقد كانت النظرة القديمة تتصور أن الأرض هى مركز الكون وكل شيء في الوجود (وليس في الأرض فحسب) مسخر لخدمة الإنسان، لأنه يقطن مركز الوجود كله، فشعر الإنسان بقيمته الكبرى التي ينفرد بها عن بقية مخلوقات الله، شعر بأنه محور الوجود، لأن أرضه هى المحور الذي تدور حوله جميع الأجرام السماوية. وهكذا انتفخ الإنسان غرورًا، وامتلأ كبرياء وصلفا، ومشى في أرجاء الكون مرحًا، وراح يباهي بقوة عقله، ويجعل من نفسه حكمًا على جميع الأشياء والكائنات.

إلا أن الأرض ــ في علم الفلك النيوتوني ــ قد تقلص حجمها إلى حد ما كان يخطر على بال أحد من القدماء. فقد اتضح أنها مجرد كوكب أصغر من أن تميزه عن أي نجم من النجوم، واتسعت المسافات الفلكية

على وجه أصبح معه حجم الأرض يبدو وسط هذا الفضاء الشاسع أشبه بحجم سن الدبوس أو ــ بتعبير أحد العلماء ــ أشبه بحبة رمل وسط صحراء شاسعة. وفضلاً عن ذلك فليست الأرض هى محور الكون، بل هي تنتمي إلى مجموعة شمسية تدور كغيرها من الكواكب حول مدار الشمس. وكان من نتيجة ذلك أن ترنح الكبرياء البشري حين صدمته هذه الحقيقة، وتغيرت صورته عن نفسه، وعن كوكبه الصغير الذي يقبع عليه، واهتزت قيمته في عين نفسه، وتضاءلت أهميته عن ذاته وأهمية كوكبه الضئيل، وقد ترتب على ذلك نتائج خطيرة من الناحية الأخلاقية والفلسفية عمومًا.

خامسًا: ولعل من أخطر الآثار والنتائج التي ترتبت على ظهور العلم الحديث وعلى النجاح الكبير الذي حققه في فترة قصيرة من الزمن نسبيًا نتيجة كان لها أثرها البالغ على عقول المفكرين والفلاسفة، وأعني بها تلك النتيجة المتعلقة بالمنهج العلمي الذي يتبعه الباحث للتوصل إلى النتائج التي يتوصل إليها.

لقد عرف تاريخ الفلسفة نوعين من المناهج: المنهج الاستنباطي الذي يبدو له أوضح مثال في التفكير الرياضي، وهو تلك الطريقة التي تبدأ بفروض نسلم بها تسليمًا ثم نستنبط منها ما يترتب عليها من نتائج، والمنهج الاستقرائي أو التجريبي الذي يبدأ بملاحظة الظواهر كما تحدث في الواقع، ثم يفرض الفروض التي تفسر الظاهرة المراد بحثها، ويتحقق من صحة هذه الفروض بإجراء التجارب أو بمزيد من الملاحظات المضبوطة، حتى إذا ما ثبت صحة فرض من هذه الفروض أصبح هو القانون العلمي الخاص بتلك الظاهرة.

وقد كان المنهج الاستنباطي هو طابع التفكير عند اليونانيين وعند رجال العصور الوسطى، فالتفكير عندهم كان رياضيًا في صورته ومبناه، وإن لم يكن كذلك في مادته وفحواه، ذلك لأن الطريقة الرياضية في التفكير كانت كفيلة في نظرهم للتوصل إلى اليقين المنشود، ذلك اليقين الذي كان السمة الرئيسية في أي علم جدير بهذا الاسم.

إلا أن ظهور العلم التجريبي الحديث والنجاح الذي حققه في كثير من ميادين المعرفة، جعل الفلاسفة يتساءلون في حيرة عن سر هذا النجاح الذي يحرزه العلم يومًا بعد يوم، بينما الفلسفة واقفة في مكانها لا تكاد تخطو خطوة إلى الأمام، ولعل الإجابة التي بدت لهم واضحة هو أن العلم الطبيعي يتبع في بحثه منهج الملاحظة والتجريب، وقصر بحثه على أمور لا تتعدى ما يمكن أن نراه ونلمسه، وهكذا بدأ المنهج العلمي هو السر الوحيد في تقدم العلوم الطبيعية وفي النجاح الذي يحرزه. وقد كانت هذه الإجابة بمثابة المطرقة التي تحطم تحت ضرباتها الكثير من طرق التفكير القديمة، وطبيعة الموضوعات التي عالجها القدماء من الفلاسفة، ومعظم النظريات الميتافيزيقية والمنطقية والأخلاقية، وكل ما يتعلق بالحياة الاجتماعية للإنسان.

ولكن لا يعني ذلك بالطبع أن المنهج الاستنباطي الرياضي فاسدًا على وجه ينبغي معه إحلال المنهج التجريبي مكانه، وكل ما يعنيه هو أن الطريقة الاستنباطية وحدها لا يمكن أن تقدم لنا التفسير الصحيح عن العالم ومشكلاته، بل لا بد ــ بجانبه ــ من استخدام المنهج العلمي القائم على الملاحظات والتجارب حتى نصل إلى القوانين العلمية. وهنا يكون المنهج الاستنباطي ممكن الاستخدام. بل أن المنهج الاستنباطي قد تطور تطورًا كبيرًا نتيجة لتطوير العلوم الرياضية منذ القرن السابع عشر، وكان تطور العلوم الرياضية مرتبطًا إلى حد كبير بتطور العلوم الطبيعية، لأن القوانين الطبيعية في حاجة إلى الرياضيات للتعبير عن نفسها تعبيرًا دقيقًا، واستخدام الملاحظة والتجريب يستلزم تطبيق المناهج الدقيقة للقياس للتوصل إلى القوانين التي تصاغ في حدود رياضية، وهذا هو السر في دقة القوانين العلمية، وسر نجاح العلم الطبيعي.

ويبدو أن تأثر الفلاسفة بمنهج العلوم التجريبية قد أتى على نحوين مختلفين: أولهما يرجع إلى صياغة القوانين العلمية في حدود رياضية، والآخر يرجع إلى طبيعة المنهج العلمي ذاته وما يترتب عليه من نتائج. فتأثر بعض الفلاسفة بالصياغة الرياضية للقوانين العلمية بحيث وقع في اعتقادهم أن تطبيق التكنيك الرياضي واللغة الرياضية على ما يمكن قياسه من الخواص التي تتكشف لنا خلال

الحواس هو وحده المنهج الحقيقي للكشف والتفكير، فراح كل من "ديكارت" و"اسبينوزا" و"ليبنتز" يحاول إعطاء تفكيره بنية من نوع رياضي، فما يمكن أن يقال لا بد أن يكون قابلاً لأن يوضع في حدود رياضية أو شبه رياضية، لأن اللغة العادية ليست على درجة كافية من الدقة، ويمكن أن توقع الباحث في كثير من المغالطات والأخطاء. إلا أن هناك من الفلاسفة من تأثر بطبيعة المنهج العلمي ذاته، والطريقة التي يصل بها العالم إلى الحقائق التي يتوصل إليه وما يقتضيه ذلك من التخلي عن كثير من المشكلات الفلسفية التي لا يمكن أن تساير روح هذا المنهج. وسيظهر ذلك بوضوح عن بعض الفلاسفة المعاصرين ممن سوف نتحدث عنهم فيما بعد.

وهكذا نخلص من ذلك أن عصر العلم النيوتوني الذي سيطر على العقول المفكرة أبان القرنين الثامن عشر والتاسع عشر على وجه الخصوص كان في حقيقته عصر تمجيد العقل، فقد استطاع العقل البشري أن يحقق منجزات ضخمة في جميع ميادين المعرفة والحياة، وأن يمسك بزمام الطبيعة ليخضعها للتحليل والتفسير.

إلا أن الاعتداد بالعقل وتمجيده على هذه الصورة كان لا بد أن يقابل برد فعل قوي له تأثيره الكبير على الاتجاهات الفكرية المعاصرة. وكانت الرومانسية من أقوى ردود الأفعال لعصر العلم والعقل.

النزعة الرومانسية كرد فعل للنزعة العقلية:

جاءت النزعة الرومانسية في السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر كرد فعل عنيف ضد النزعة العلمية التي سادت أوروبا منذ حوالي القرن السادس عشر والتي بلغت ذروتها في العلم النيوتوني في أوائل القرن الثامن عشر. وكان لهذه الحركة تأثيرها الكبير ــ سواء كان هذا التأثير سلبيًا أو إيجابيًا ــ على جميع أوجه النشاط الإنساني من فن وأدب وفلسفة وسياسة، وحتى أولئك الذين نفروا من هذه الحركة قد اضطروا إلى اتخاذ مواقف منها، وكثيرًا ما كان يتأثرون بها أكثر مما يظنون.

ونعرض هنا لهذه النزعة باختصار[٣] لأنها تشكل في الواقع الخلفية الثقافية لمعظم الفكر الفلسفي المعاصر، مع أن النزعة الرومانسية لم تكن في البداية مرتبطة بالفلسفة، إذ أنها بدأت مرتبطة بالسياسة على يد "جان جاك روسو"، إلا أنها سرعان ما وجدت لها روابط متعددة بالفلسفة.

وإذا كان روسو أول شخصية كبيرة في الحركة الرومانسية، فقد كان يعبر عن اتجاهات كانت سائدة بالفعل، إذ شغف المثقفون في فرنسا أبان القرن الثامن عشر شغفًا كبيرًا بما أطلقوا عليه "الشعور" أو "الحساسية" La Sensibilité ويعني الميل إلى العاطفة التي لا بد أن تكون مقنعة بشكل كامل، ولا بد لها أن تكون مباشرة وحادة على وجه لا يمكن أن يكون في استطاعة الفكر التعبير عنها. وعلى هذا راح الرومانسيون يؤكدون الجانب العاطفي من الطبيعة البشرية، وليس الجانب العقلي فيها.

اعتقد الرومانسيون أن التراث العلمي للقرن التاسع عشر كان ــ رغم عظمته واتساعه وبعد مداه ــ أداة أقل ملائمة للتعبير عن ميول الطبيعة البشرية واهتماماتها المتعددة، حتى لقد ساءت سمعة عصر العقل رغم دعاواه الكثيرة العادلة، ساءت سمعته لا لأن معتقداته لم تكن صحيحة، ولا لأنها لم تكن معقولة، بل لأن المثل الأعلى للحياة الذي كان يقدمه للناس كان مثلاً واهيًا سطحيًا هزيلاً. فمن الجائز أن يكون الإنسان حيوانًا عاقلاً، غير أن جانبه الحيواني أعمق جذورًا من جانبه العقلي، ولذلك فإنه لا يستطيع العيش على الحقيقة وحدها. وهكذا وقفت النزعة الرومانسية وجهًا لوجه أمام العلم النيوتوني لتجده غير وارد أكثر من أن تجده مغلوطًا.

إن النزعة الرومانسية ــ إذن ــ جاءت في أساسها رد فعل ضد تأويل الخبرة البشرية تأويلاً ضيقًا في حدود العقل وحده، وثورة ضد النظر إلى العالم بوصفه نظامًا آليًا واسعًا فحسب، إذ أن العالم في نظرهم أرحب مما يمكن أن تقدمه لنا الفيزيقا، وأن الحياة شيئًا أوسع من الذكاء. فانصرفوا إلى خبرة الإنسان بكل اتساعها وشمولها، بدلاً من الاقتصار على العلم وحده.

وذهب روسو ــ ينبوع الحركة الرومانسية ــ إلى إعلاء ما اسماه "الإنسان الطبيعي"، إلا أن تصوره لما هو طبيعي في الطبيعة البشرية لم يكن قائمًا على نظام الطبيعة الذي تصوره "نيوتن"، بل كان قائمًا على خبرته هو الشخصية. فالإنسان عنده ليس هو ذلك المخلوق الذي يفكر تفكيرًا عقليًا منطقيًا ليحكم على الأشياء من زاوية منفعتها له أو لأصحابه، بل هو ذلك المخلوق الذي يشعر ويتأثر. كما كان يعتقد أن الذكاء والعقل من ثمار البيئة الاجتماعية تلك البيئة التي تتناول طبيعة الطفل المرنة وتفسدها بإدخالها قسرًا في قالب تقليدي غريب عنها بلا شك، فإن "كل شيء يكون حسنًا عندما يخرج من بين يدي خالق الطبيعة، ولكن يفسد كل شيء عندما تتناوله يد الإنسان" و"ليست الحكمة البشرية كلها سوى أهواء ذليلة، وليست عاداتنا إلا مجرد خضوع وقلق وكبت، فالإنسان يولد، ويعيش، ويموت في حالة من العبودية، يسجن عند الميلاد في قماط، ويشد عند الوفاة إلى كفن، ويبقى مكبلاً بقيود مختلف المؤسسات مادام في قميص الإنسان".

ومن هنا كانت مهمة التربية عند روسو المحافظة على الإنسان الطبيعي، ولكي نحقق هذه المهمة، فلا بد لنا ــ في نظر روسو ــ أن نجنب الطفل أي تعليم منظم على يد كائنات بشرية أخرى. فقد كان قوام هذه التربية السلبية عنده هو "ألا يتعلم الطفل مبادئ الفضيلة والحقيقة، بل أن نحفظ قلبه من الرزيلة، وعقله من الزلل". ولو نجحنا في هذه الخطة لنبعت تربية الطفل من النمو الحر لطبيعته الخاصـــة، ولقواه الذاتيـــة، ولميوله الطبيعية الخاصة. وهذا يعني ــ كما هو واضح ــ أن الأحكام الغريزية، والانفعالات البدائية، والغرائز الطبيعية والانطباعات الأولى هى الأجدر بأن نتخذها أساسًا للعمل بدلا من كل تأمل وحذر وخبرة ناشئة من الاتصال بالآخرين: إذ أن العواطف هى العنصر الأهم في حياتنا العقلية، ويبلغ الإنسان الكمال بنمو شعوره لا بنمو ذكائه. فالإنسان المثالي هو ذلك الكائن الذي يفيض حبًا وعطفًا على الآخرين، وهو الذي يستلهم الشعور الديني، وعرفان الجميل والاحترام.

وقد كان تأكيد روسو على المشاعر البشرية والعواطف الإنسانية الأصيلة تأكيدًا ثوري المقصد من الناحية السياسية، فإذا كانت الثورة الفرنسية ثمرة المذهب

العقلي في القرن الثامن عشر، فإن أصحاب النزعة الرومانسية حاولوا الوقوف مع صف المعارضة المحافظة. ومن هنا جاء تأكيدهم على الإيمان بوصفه سندًا أساسيًا للدين الذي حاول عصر العلم معارضته وهدمه.

وقد حاولت النزعة الرومانسية تحرير الفرد من القيود التي يكبله العقل بها، ومن تزمت العادات وقسوة التقاليد. وقد تعلم الرومانسيون من "روسو" ازدراء الطقوس والعرف في الملبس والعادات، ثم في الفن والحب، وأخيرًا في الأخلاق التقليدية. ولكن لا يعني ذلك بالطبع أن الرومانسيون كانون بغير أخلاق، بل على العكس كانت لهم أحكامهم الأخلاقية الحادة والصارمة، إلا أنهم كانوا يقيمونها على مبادئ مختلفة تمامًا عن تلك التي كانت تبدو لسابقيهم خيرة.

فقد كانت الفترة منذ ١٦٦٠ حتى الوقت الذي ظهر فيه "روسو" فترة اضطرابات وقلاقل، حيث نشبت الحروب الأهلية بفرنسا وإنجلترا وألمانيا، فأدى ذلك إلى إحساس الناس بالقلق الشديد من خطر الفوضى، ومن جميع الاتجاهات التي تحركها المشاعر القوية الحادة، وأصبحوا على اقتناع بأهمية الأمان، والعمل على تحققه بأي ثمن. وبدأ لهم التصرف الحكيم فضيلة كبرى، ومالوا إلى التعقل والحكمة دون الأعمال المتهورة.

ولكن منذ أيام "روسو" بدأ الناس يملون هذا الأمان، وكان يستثيرهم في ذلك نابليون والثورة الفرنسية. وقد اتخذ هذا التمرد صورتين:

الأولى: تمرد الاتجاه الصناعي، سواء الرأسمالي منه أو البروليتاري، ضد الملكية الأرستقراطية، وقاد هذا التمرد الفلاسفة الراديكاليين وحركة التجارة الحرة، والاشتراكية الماركسية.

الثانية: تمثلت في تلك النزعة الرومانسية، فلم يكن الرومانسيون ينشدون الهدوء والسلام كما هو شائع، بل كانوا ينشدون الحياة الفردية العاطفية العنيفة. إلا أنهم لم يكونوا في تعاطف مع الاتجاه الصناعي، لأنه كان في نظرهم قبيحًا. فقد بدأ لهم أن جمع المال ليس ثروة للنفس الفانية، فضلاً عن أن المنظمات الاقتصادية الحديثة تتدخل في الحرية الفردية بشكل سافر.

وكانت هذه الحرية الفردية تعني عندهم أن أخلاق الفرد وشخصيته هما العامل الهام والحاسم، وكان شعارهم دائمًا "كن ذاتك، ونم شخصيتك".

ولكن على الرغم من أن أحدًا من الزعماء الحقيقيين للرومانسية لم يذهب إلى حد القول بعدم الاكتراث بالغير، وعلى الرغم أيضًا من أن معظمهم رأى في العناية بشخصيات الآخرين وخدمتها أداة هامة لنمو الشخص، فلا جدال في أن تأكيدهم الواضح على الفردية كان بمثابة الحافز القوي والتبرير الكافي للمذهب الفردي الاقتصادي الذي يعد أساس النظرية الرأسمالية.

وهكذا نستطيع أن نصف النزعة الرومانسية عمومًا بأنها قد أحلت المقاييس الجمالية محل المقاييس النفعية، إذا كانت لأخلاقها دوافع جمالية منذ البداية، تشبع أصحابها بأخلاق الفلاحين بما يسود بينهم من تعاطف ومودة. وكانت لهم طريقتهم الخاصة في عرض آرائهم، واستخدامهم للشخصيات التي تجسد هذه الآراء، حيث كانت تلك الشخصيات في الغالب تدور بين قطبين متناقضين يقفان في صراع حاد: بين الفلاح الفقير والمرابي الجشع، وتكون الغلبة في النهاية لهذا الأخير. فقد رأي الرومانسيون أن الفقراء يتمتعون بالفضيلة أكثر من الأغنياء، والفقراء مغلوبون على أمرهم، والأغنياء ظالمون. وقد ظهر الفقير في خيالهم على صورة ذلك الرجل الذي لا يملك سوى بضع قراريط من الأرض، لا يملك أي مصدر للرزق إلا عمله في هذه القراريط، تلك القراريط التي كان يفقدها الفقير في ظروف عاطفية محزنة، فبعد أن يتقدم به العمر يصبح عاجزًا عن العمل، فتنهار ابنته المحبوبة، ويكون لدى المراهنين والسادة الأوغاد استعدادًا للانقضاض على القراريط وعلى شرف الابنة.

إن مثل هذا الخيال الدرامي ما كان يمكن أن يتم التعبير عنه بالدقة المطلوبة إلا عن طريق القصص. ومن هنا كان خير ما نعرفه لهؤلاء الرومانسيين هو ما كانوا يذكرونه في رواياتهم الخيالية، وكانوا فيها يشغفون بكل ما هو غريب، الأشباح والقلاع القديمة وغير ذلك مما يضفى على رواياتهم مثل هذا الجو الرومانسي.

ولعل من أهم فضائل هذه النزعة سعة صدرها وتسامحها، واستعدادها لتقبل أية حقيقة، أو أية قيمة من القيم يمكن أن تكشف عنها أية خبرة. أما عيبها المزعج فهو أنها قد تقود إلى اليأس والى عدم الاكتراث بجميع مقاييس الحقيقة والقيم، وهو ما جعلهم يأبون الأخذ بتلك التمييزات التي تعد أساسية للحياة المنظمة. فشأن الرجل الرومانسي شأن السكران الذي يتقبل جميع الأشياء على أنها ذات قيمة واحدة، ويعجز في أكثر الأحيان من انتقاد خبرته، وتشعله مباهج مجرد العيش عما في العيش الجيد من مباهج أعظم.

وعلى أي حال فقد كان للنزعة الرومانسية أثرها الواضح في فلسفة القرن التاسع عشر والقرن العشرين بجانب الاتجاه العقلي الذي لم تستطع القضاء عليه، بل ازداد خطره وتأثيره نتيجة للتطورات العلمية أبان القرن التاسع عشر(٤).

إلا أننا نلاحظ بوجه عام أن الحياة الفكرية في القرن التاسع عشر كانت أعقد مما كانت عليه في القرن الثامن عشر. ويرجع ذلك إلى عدة أسباب، لعل من أهمها الأسباب التالية:

أولاً: أن الحياة الفكرية لم تعد مقصورة على أوربا، بل اتسعت رقعتها وأصبحت أوسع بكثير من رقعتها السابقة. فقد قدمت أمريكا وروسيا مساهمات كبيرة كان لها أهميتها الواضحة في ذلك القرن.

ثانيًا: أن العلم الذي كان المصدر الأساسي للجدة منذ القرن السابع عشر قد حقق الكثير من الانتصارات، وخاصة في الجيولوجيا، والبيولوجيا والكيمياء العضوية.

ثالثًا: أن الإنتاج الآلي قد غير بصورة واضحة من البناء الاجتماعي وقدم للناس تصورًا جديدًا لقواهم في علاقتها مع البيئة الفيزيقية.

رابعًا: أن الثورة الفلسفية والسياسية على النظم التقليدية في الفكر والسياسة صوبت ضربات قاسية وناجحة إلى كثير من المعتقدات والمؤسسات التي كانت تعد حتى ذلك الوقت غير قابلة للتغيير. وقد اتخذت هذه الثورة

صورتين مختلفتين تمامًا: إحداهما رومانسية والأخرى عقلية، وقد انتقلت الصورة الرومانسية من "بيرون" و"شوبنهور" و"نيتشة" إلى موسوليني وهتلر. وبدأت الثورة العقلية من فلاسفة الثورة الفرنسية ثم انتقلت ــ بعد تخفيف حدتها ــ إلى الفلاسفة الإنجليز، واتخذت حينئذ صورة أخرى عند ماركس، وشاعت في روسيا السوفيتية.

وعلى ذلك تمثل الصورة الرومانسية مصدرًا من مصادر الحياة الفكرية في القرن التاسع عشر، تلك الصورة التي نراها في ثوب غير فلسفي عند "بيرون" ونقرأها في لغة الفلسفة عند "شوبنهور" و"نيتشة"، مالت إلى تأكيد الإرادة للحط من العقل، وإلى الملل من سلاسل التفكير العقلي، وإلى تمجيد العنف من أنواع معينة. وهى في السياسة العملية ذات أهمية كبيرة في مناصرة النزعات القومية، وفي اتجاهها الفكري تبدو ــ وإن لم يكن ذلك في الواقع تمامًا ــ معادية لما يسمى في العادة بالعقل، وتميل إلى أن تكون ضد الاتجاه العلمي.

ومهما يكن من أمر تلك المؤثرات، فإن هناك أيضًا مصدرين آخرين للفكر الفلسفي في القرن التاسع عشر، وهما: العلم والإنتاج الآلي، بدأ تأثير ثانيهما مع ظهور "ماركس" وأخذت أهمية تزداد بالتدرج. أما الأول فقد كانت له أهميته منذ القرن السابع عشر، إلا أنه اتخذ في القرن التاسع عشر صورًا جديدة.

فإذا كان "جاليليو" و"نيوتن" من علماء القرن السابع عشر، فإن "داروين" كان علماء القرن التاسع عشر، وكانت لنظرية "دارون" تأثير كبير على بعض الاتجاهات الفلسفية في ذلك القرن. ولنظرية "داروين" جانبان: الأول وهو نظرية التطور القائل بأن صور الحياة المختلفة قد طورت بالتدرج من سلالة واحدة. والثاني هو الصراع من أجل الوجود، والبقاء للأصلح، وكان هذا الجزء، وهو تفسير ميكانيكي لعملية التطور موضع اهتمام كبير من جانب كثير من علماء البيولوجيا وعلماء الاجتماع السكاني.

وقد أثرت نظرية التطور في بعض الاتجاهات الفلسفية أبان القرنين التاسع عشر والعشرين، حيث ظهرت فلسفة التطور لتعلب دورًا هامًا في هذين القرنين، ويمثل "نيتشة" و"البراجماتيون" و"برجسون" صورًا من هذه الفلسفة.

هذه هى الخلفية العامة التي نستطيع أن نبدأ منها الحديث عن الفلسفة المعاصرة، لنتبين بشكل واضح ملامحها العامة واتجاهاتها الرئيسية، وهذا هو موضوعنا الذي سوف نتناوله الآن بشيء من التفصيل.

الاتجاهات العامة للفلسفة المعاصرة:

إذا شئنا أن نحدد بشكل دقيق الاتجاهات الفلسفية المعاصرة فإننا نجد أنفسنا عاجزين تمامًا عن تحقيق هذا الأمر، فليس من اليسير على أي باحث أن يضم فلاسفة القرن العشرين تحت طائفة من الاسماء، يشير كل اسم منها إلى مدرسة فلسفية بعينها، بل قد تنطوي هذه المحاولة على شيء من التضليل والخطأ، إذ أن التمييز بين مدارس الفكر المعاصرة ليس تمييزًا حاسمًا على الإطلاق، ويرجع ذلك في اعتقادنا إلى عدة أسباب لعل من أهمها السببين التاليين:

أولاً: أن فيلسوف القرن العشرين وجد أمامه تراثًا فكريًا أفرزه العقل الإنساني على مدى قرون طويلة، فأمامه تراث فكري يرجع إلى ازدهار الفلسفة في العصر اليوناني، وتراث ديني فلسفي يرجع إلى العصر الوسيط، ونتاج علمي هائل بدأ منذ القرن السادس عشر وما ترتب عليه ــ إيجابًا وسلبًا ــ من حركات فكرية وتطورات اجتماعية واقتصادية وسياسية. فجاء فيلسوف هذا القرن ليجد البيئة الفكرية تموج بشتى أنواع التيارات، المتقاربة حينًا والمتعارضة حينًا آخر، ولا شك أنه قد وجد في كل تيار جوانب تروق له، وجوانب أخرى لا تلاق صدى في نفسه، وثالثة ما يمكن أن يقبلها بعد تعديلها، أو إضافة ما يراه ضروريًا عليها. إلى آخر ما يمكن أن يكون مصدر تأثير عيه بصورة أو بأخرى.

وهكذا تكونت عقلية الفيلسوف المعاصر من مصادر شتى يصعب حصرها، ولعل تلك التيارات الكثيرة قد عملت عملها ــ بشكل شعوري أو غير شعوري ــ في تكوين فكره وطريقة تفكيره. ويصعب على الباحث في تلك المرحلة أن يقول عن أي فيلسوف معاصر ــ وهو على يقين من قوله

ـــ أن هذا الفيلسوف قد استوحى فلسفته من مصدر واحد بعينه، أو أن يحدد بدقة مصادر بذاتها كانت هى وحدها مصدر إلهام هذا الفيلسوف أو ذاك.

فلا غرابة إذن في أن نجد فيلسوفين يشتركان في مبدأ أو أكثر ويختلفان في مبدأ آخر أو أكثر، أو أن نجد فيلسوفين يبدأن بداية واحدة، وسرعان ما تفترق بهما الطرق حتى يبدوان وكأنهما متعارضان، بحيث لو أردنا أن نضعهما تحت قوائم المدارس المتعددة، لكان في إمكاننا أن نضعهما تحت اسم لمدرسة واحدة، أو أن نضع كلا منهما تحت اسمين لمدرستين مختلفتين.

ولنضرب لذلك مثلاً بفيلسوف من الفلاسفة المعاصرين وهو "وليم جيمس" في إمكاننا أن نضم هذا الفيلسوف إلى زمرة الفلاسفة الواقعيين، بل قد نجعله المؤسس الأول للمذهب الواقعي المعاصر، ولكن في إمكاننا أيضًا أن نضعه في قائمة فلاسفة مذهب التطور، فضلاً عن أنه في نفس الوقت أحد الأعلام الكبار في الفلسفة البراجماتية.. وهكذا.

إن مرجع ذلك ـــ في اعتقادنا ـــ هو كثرة التراث الفكري الذي وجده الفيلسوف المعاصر بين يديه على وجه أصبحت معه المؤثرات الفكرية أكثر وفرة وغزارة، بحيث يمكن أن تتدخل تلك المؤثرات عند الفلاسفة، وبذلك تتقارب النظريات الفلسفية في بعض جوانبها، مما يؤدي إلى جعل تصنيفهم إلى مدارس محددة وقاطعة أمرًا متعذرًا، إن لم يكن مضللاً.

ثانيًا: أن الديمقراطية الفكرية التي ربما تكون مرتبطة بالديمقراطية السياسية، جعلت الفلاسفة يتقبلون آراء بعضهم البعض الآخر، ويناقشونها مناقشة حرة، سواء على صفحات المجلات الفلسفية المتعددة أو في المؤتمرات الفلسفية العديدة، ولا شك في أن هذا التواصل الفكري كان من شأنه أن يجعل فلاسفة القرن العشرين يعيشون في جو من الألفة الفكرية، على صورة يمكن معها أن يتم التأثر والتأثير فيما بينهم. فيأخذ بعضهم من

البعض الآخر بعض الجوانب التي يقتنع بصحتها بصرف النظر عن الاختلافات المذهبية. وبعبارة أخرى فإن الفيلسوف المعاصر بوجه عام أكثر تواضعًا، وأقل تعصبًا لآرائه، بحيث يكون لديه الاستعداد دائمًا لأن يتخلى عن رأي من آرائه لو اتضح له بطلانه نتيجة لاحتكاكه بغيره من الفلاسفة، دون أن يرى في ذلك تقليلاً من شأنه وحطًا لمكانته(٥).

ولدينا في الفلسفة المعاصرة الكثير من الأمثلة الحية لهذه الحقيقة. ونكتفي هنا بعض هذه الأمثلة. فقد ظل الفيلسوف البريطاني المعروف "برتراند رسل" يهاجم إحدى نظريات الفيلسوف الأمريكي "وليم جيمس" سنوات طويلة، كما ظل هذا الأخير يرد عليه مفسرًا تلك النظرية وشارحًا أبعادها متهمًا زميله البريطاني بعدم فهم تلك النظرية، وظل هذا النقاش دائرًا حتى أتى رسل بعد ذلك إلى اعتناق النظرية، متخليًا بذلك عما كان يدافع عنه طوال ما يقرب من عشرين عامًا، وهكذا اتفق الفيلسوفان على نظرية من النظريات على الرغم من الاختلافات الأخرى بينهما.

وكان الفيلسوف البريطاني "وايتهد" يدافع في بداية حياته الفلسفية عن نظرية معينة، ولكنه انتهى إلى صبغ فلسفته المتأخرة بصبغة برجسونية واضحة.

ولعل من مزايا الفلسفة المعاصرة إزالة الحواجز بين الفلسفات، فلم تصبح الفلسفة في هذا القرن جزرًا فكرية مستقلة، أو وحدات مذهبية قائمة بذاتها بل هناك تواصل وتفاعل، إذ لم تعد هناك عزلة فكرية في أية بقعة من بقاع العالم. ولم يعد هناك أي مجال للحديث عن فلسفة إنجليزية أو أمريكية أو فرنسية أو ما إلى ذلك، وكأن الجنسية وحدها هي الكفيلة بتحديد معالم هذه الفلسفة أو تلك. وآية ذلك أننا نجد فلسفات وجودية لا في ألمانيا وفرنسا وحدهما، بل في كل من إيطاليا وإسبانيا وبلجيكا والولايات المتحدة الأمريكية، ونحن لا نلتقي بالوضعية المنطقية في النمسا وألمانيا وإنجلترا فقط، بل في سويسرا والولايات المتحدة وغيرهما من البلدان، وهكذا الحال بالنسبة إلى سائر التيارات الفلسفية المعاصرة، فإنها أصبحت جميعًا حركات شاملة لا تقف عند حدود عنصرية أو قومية أو إقليمية، بل تتردد في كل

بقاع العالم دون تفرقة أو تمييز. ولا شك في أن هذه المصاهرة الفكرية قد جعلت تمييز مدارس الفلسفة المعاصرة تمييزًا دقيقًا أمرًا غاية في الصعوبة، إن لم يكن مفتعلاً ومضللاً[٦].

وعلى الرغم من ذلك كله فلا يبدو لنا مهرب من الحديث عن الاتجاهات الفلسفية المعاصرة، أو بعبارة أخرى من محاولة تقسيم الفلاسفة المعاصرين إلى فرق ومدارس، حتى نتمكن من معرفة الاتجاهات الفلسفية في هذا القرن. إلا أن حينما نفعل ذلك فإننا لا نهدف إلى تقديم تصنيف دقيق لهذه الاتجاهات، بل مجرد محاولة لتقديم تصنيف تقريبي مع شيء من التجاوز الذي يبدو مقبولاً إلى حد معين.

وهنا نلاحظ أن الباحثين الذين تعرضوا لهذا النوع من التقسيم لم يتفق بهم الرأي على تقسيم واحد بعينه، بل نراهم يختلفون اختلافًا واضحًا فيما بينهم، سواء في عدد تلك الاتجاهات أو اسمائها أو الفلاسفة الذين ينتمون إلى هذا الاتجاه أو ذاك. فذهب "برتراند رسل" إلى تقسيم فلاسفة القرن العشرين إلى ثلاث مذاهب رئيسية:

الأول: اتباع الفلسفة الألمانية الكلاسيكية وعادة ما يخصون فلسفة "كانط" و"هيجل" أحيانًا، ويتألف **الثاني:** من البراجماتيين وبرجسون. والثالث: يضم أولئك الذين يتصلون بالعلم، ويمكن أن نطلق عليهم اسم الواقعيين وإن كان بعضهم لا يصدق عليه هذا الاسم تمامًا[٧].

أما "وولف"[٨] فقد قدم ستة اتجاهات أو مذاهب هي:

١- **المذهب المادي:** ويقصد به المذهب الوضعي في ألمانيا الذي يضم فلاسفة مثل "هايكل" و"استولد" و"ماخ".

٢- **المذهب المثالي:** ويضم قائمة طويلة من الفلاسفة من أمثال "برادلي" و"جرين" و"بوزنكيت" و"رويس" وغيرهم.

٣- **مذهب التعدد الروحي أو الكثرة الروحية:** ومن بين القائلين به "جيمس وود" و"تيلور".

٤- **مذهب التجربة الجديد:** وأهم القائلين به "هوسرل" صاحب فلسفة الظاهريات أو الفينومينولوجيا.

٥- **فلسفة الحياة:** وتضم بعض كبار الفلاسفة من أمثال "برجسون" و"وليم جيمس" و"جون ديوي".

٦- **مذهب الواقع:** ويضم أيضًا بعض مشاهير فلاسفة القرن العشرين، ومن بينهم "صمويل الكسندر" و"جورج مور" و"برتراند رسل".

ونلاحظ هنا على تقسيم وولف أنه أهمل مذهبًا فلسفيًا هامًا في الفلسفة المعاصرة وهو المذهب الوجودي، ويبدو أن المذهب لم يكتسب مكانه بين فلسفات هذا القرن إلا بظهور بعض كبار فلاسفته من أمثال "سارتر" و"هيدجر" و"ياسبرز" الذين لم يأخذوا مكانهم بين الفلاسفة أثناء نشر "وولف" لكتابه الذي أورد فيه هذا التقسيم.

أما "بوشنسكي" فقد ذكر أيضًا ستة اتجاهات للفلسفة المعاصرة هي[٩]:

١- **الاتجاه المادي (فلسفة المادة):** ويضم عدة مدارس، لعل في مقدمتها الواقعية المحدثة في إنجلترا وأمريكا الذي يعد "مور" و"رسل" من أكبر دعاتها، ثم الوضعية المنطقية. كما يضع المادية الجدلية من بين هذا الاتجاه.

٢- **الاتجاه الروحي (فلسفة الفكر):** ويعبر عنه أنصار المذهب المثالي من أمثال "كروتشة" و"كاسيرر" وغيرهم.

٣- **الاتجاه الحيوي (فلسفة الحياة):** ويعبر عن هذا الاتجاه برجسون والبرجماتية.

٤- **الاتجاه الفينومينولوجي (فلسفة الماهية):** وقد نشأ في البداية على يد "ماينونج" ثم تبلور على صورة فلسفة للظاهريات على يد "هوسرل".

٥- **الاتجاه الانطولوجي (فلسفة الكينونة):** ويعبر عن هذا الاتجاه "وايتهد" و"الكسندر" في إنجلترا و"لويس لاڤل" و"رينيه لوفر" في فرنسا، و"هارتمان" في المانيا.

٦- **الاتجاه الوجودي (فلسفة الوجود):** وهو الاتجاه المعروف باسم الوجودية الذي يرتد إلى "كيركجارد" ويمثله في ألمانيا "هيدجر" و"ياسبرز" وفي فرنسا "سارتر" و"جبريل مارسل" و"موريس ميرلوبنتي".

وهذا التقسيم في الواقع أدق من سابقه، إلا أنه في بعض جوانبه يبدو مربكًا إلى حد ما، وذلك لأنه أحيانًا يضع المدارس المتناقضة تحت اتجاه واحد فيجمع مثلاً بين "رسل" و"مور" والوضعين المناطقة من ناحية، والمادية الجدلية من ناحية أخرى، مع أن لكل من الاتجاهين طابعًا مختلفًا عن الاتجاه الآخر.

ولعل أبسط تقسيم للفلسفة المعاصرة يمكن أن نقدمه هو التقسيم التالي، مع كل ما فيه من تجاوز:

١- **المذهب البراجماتي:** وأهم داعته "وليم جيمس" و"جون ديوي".

٢- **المذهب المثالي:** وأهم ممثلية "برادلي" و"كروتشة" و"جرين".

٣- **المذهب الفينومينولوجي:** وأهم ممثل له هو "هوسرل".

٤- **المذهب الوجودي:** ومن أهم ممثليه "سارتر" و"هيدجر" و"ياسبرز".

٥- **فلسف التحليل:** وأهم ممثليها "رسل" و"مور" و"فتجنشتاين".

٦- **الواقعية الجديدة:** وتضم "الكسندر" و"وايتهد" وبعض جوانب "رسل".

وفي فصولنا القادمة سنتحدث عن بعض هذه الاتجاهات، ونشير إلى بعضها الآخر.